

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين أما بعد :

قال رحمه الله تعالى :

[فصل (فرض الجهاد) : ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة بين أظهر الأنصار وتكفلوا
بنصره ومنعه من الأسود والأحمر رمتهم العرب قاطبة عن قوس واحدة وتعرضوا لهم من
كل جانب ، وكان الله سبحانه قد أذن للمسلمين في الجهاد في سورة الحج - وهي مكة
- في قوله تعالى : { أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظُلُمُوا وَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ }
[الحج: ٣٩] ، ثم لما صاروا في المدينة وصارت لهم شوكة وعضد كتب الله عليهم الجهاد كما
قال الله تعالى في سورة البقرة : { كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }
[البقرة: ٢١٦] .

ثم عقد ابن كثير رحمه الله هذا الفصل في بيان فرضية الجهاد وأن الله ﷻ كتبه على المسلمين ،
وهذه الفرضية إنما كانت بعد مُهاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، وأما لما كانوا في مكة وكانت
حالهم في ضعف وعدم تمكن لم يُفرض عليهم الجهاد بالسيف إذ ذاك ، وإنما فُرض عليهم
الجهاد بالقلب والجهاد باللسان ؛ ﴿ فَلَا تَطْعُمُوا الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]
أي بالقرآن ، فالمجاهدة بالقرآن والمجاهدة بالحجة والبيان والتعليم والدعوة وإقامة الحجة على
الناس هذا كان في مكة ، وفرضية الجهاد إنما كانت في المدينة بعد أن حصل للمسلمين دولة
وحصلت لهم قوة ؛ وهذا أخذ منه أهل العلم أن فرضية الجهاد جاءت على مراحل ؛ لما كان
المسلمون في بداية الإسلام وفي أوله وعدم وجود دولة وعدم وجود قوة لم يُفرض عليهم جهاد
السيف إذ ذاك ، ولما صار لهم شوكة وقوة ودولة حينئذ جاءت فرضية الجهاد ، والإمام ابن
كثير رحمه الله تعالى عقد هذا الفصل لبيان ذلك بين يدي ذكره لغزوات وبعوث وسرايا النبي
الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((ولما استقر رسول الله ﷺ بالمدينة بين أظهر الأنصار)) ؛ وكانوا قد بايعوه على النصر والمؤازرة والمعاوضة لا تأخذهم في الله تبارك وتعالى لومة لائم .

قال : ((وتكفلوا بنصره ومنعه من الأسود والأحمر رمتهم العرب قاطبة عن قوس واحدة)) ؛ أي أصبحت العرب كلها معادية لهذه الدولة المسلمة الناشئة في هذه المدينة - مدينة الرسول الكريم ﷺ - .

((وتعرضوا لهم من كل جانب)) ؛ أي بدأت تبرز العداوات من هنا وهناك ، وأشد الناس ضراوة وعداوة للمسلمين كفار قريش ؛ الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم لا لشيء إلا لأنهم قالوا "ربنا الله" وأخلصوا دينهم لله تبارك وتعالى ، فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم وقتلوا منهم من قتلوا وآذوا منهم من آذوا وتعرضوا لأموالهم ؛ فهاجر المسلمون إلى المدينة وصار لهم فيها دولة ففرض الله ﷻ عليهم الجهاد حينئذٍ.

قال : ((وكان الله سبحانه قد أذن للمسلمين في الجهاد في سورة الحج وهي مكة في

قوله : ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (٣٩) ﴿))

؛ لكن كما بين الإمام ابن القيم رحمه الله أن سورة الحج وإن كانت مكة إلا أن فيها آيات

مدنية ليست مكة ، ومن بينها هذه الآية ﴿ أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ

اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ ، وقال رحمه الله : " وَقَدْ قَالَتْ طَائِفَةٌ إِنَّ هَذَا الْإِذْنَ كَانَ بِمَكَّةَ

وَالسُّورَةُ مَكِّيَّةٌ ؛ وَهَذَا غَلَطٌ لِوُجُوهِ " ، ثم ساق رحمه الله تعالى ستة وجوه بين فيها غلط قول

من قال إنَّ الإذن في هذه الآية إنما هو بمكة وليس في المدينة لكون السورة مكة ثم قال

رحمه الله : " ثُمَّ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ بَعْدَ ذَلِكَ لِمَنْ قَاتَلَهُمْ دُونَ مَنْ لَمْ يُقَاتِلْهُمْ فَقَالَ ﴿ وَقَاتِلُوا

فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٠] . ثُمَّ فَرَضَ عَلَيْهِمُ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ، وَكَانَ

مُحَرَّمًا ثُمَّ مَأْدُونًا بِهِ ثُمَّ مَأْمُورًا بِهِ لِمَنْ بَدَأَهُمُ بِالْقِتَالِ ثُمَّ مَأْمُورًا بِهِ لِجَمِيعِ الْمُشْرِكِينَ إِمَّا فَرَضُ

عَيْنٍ عَلَى أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ أَوْ فَرَضُ كِفَايَةٍ عَلَى الْمَشْهُورِ ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ جِنْسَ الْجِهَادِ فَرَضُ عَيْنٍ

إِمَّا بِالْقَلْبِ وَإِمَّا بِاللِّسَانِ وَإِمَّا بِالْمَالِ وَإِمَّا بِالْيَدِ فَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُجَاهِدَ بِنَوْعٍ مِنْ هَذِهِ

الأنواع. أمّا الجِهَادُ بِالنَّفْسِ فَقَرَضُ كِفَايَةٍ وَأَمّا الجِهَادُ بِالْمَالِ فَفِي وَجُوبِهِ قَوْلَانِ وَالصَّحِيحُ وَجُوبُهُ " .

قال ابن كثير رحمه الله : ((ثم لما صاروا في المدينة وصارت لهم شوكة وعُضد كتب الله عليهم الجهاد كما قال الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢١٦))) ؛ ﴿ كُتِبَ ﴾ : أي فُرض، فرضه الله ﷻ عليكم ﴿ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ : أي بحسب طبع الإنسان ، لأن الإنسان يكره الموت ويكره أن يتعرض جسمه وبدنه للأذى والإصابة ؛ وإذا دخل الجهاد فهو عرضة لهذا وهذا .

وهذه المغازي التي سيتحدث عنها المصنف رحمه الله ويسوق شيئاً من تفاصيلها وأخبارها هي كما قال أئمة السلف رحمهم الله تعالى مآثر الآباء والأجداد ومآثر السلف الأولين من الصحابة رضي الله عنهم ومن التابعين لهم بإحسان ممن كتب الله ﷻ على أيديهم عز الإسلام ورفعته المسلمين وعلو كلمة لا اله إلا الله ، وانتشار دين الله ﷻ في الآفاق ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩] فحصل على أيديهم من النصر والإعزاز لدين الله والإعلاء لكلمة الله وضُحوا في سبيل ذلك بمهجهم وأنفسهم ودماءهم وجعلوها رخيصة في سبيل الله تبارك وتعالى وفي سبيل إعزاز دينه ﷻ .

ولهذا ينبغي مطالعة هذه الغزوات وفهمها وأيضاً فهم موضوعات الجهاد فهماً صحيحاً بعيداً عن غلو من غلا وجفاء من جفا ، بعيداً عن الإفراط والتفريط ، وأن تُنزل آيات الجهاد منازلها ، لأن من الأخطاء الفادحة أن تنزل بعض آيات الجهاد في بعض الأزمنة في غير موضعها . قد مر معنا أن الجهاد مر بمراحل فقال أهل العلم أخذاً من هذه المراحل أنّ الواجب النظر في أحوال المسلمين ومقدّرتهم ومُكُنَّتِهِمْ في كل زمان وفي ضوء ذلك يُنظر في باب الجهاد ، بينما بعض الناس يدخل في هذا الباب بدون أي ضابط شرعي وبدون فهم لشروط الجهاد وضوابطه وقیوده فيقع على يديه أمور هي من الإفساد وهو يظنها جهاداً في سبيل الله ونصرة لدين الله ﷻ ، وهذا أمر من الخطورة جداً بمكان ؛ فباب الجهاد باب خطير

للاغاية وليس الكلام فيه لأحد الناس وأفرادهم ، وإنما الكلام فيه والأمر فيه للأئمة الأكابر ولأهل العلم وأن تكون المقاتلة من وراء السلطان وتحت لواءه وأن يكون ذلك بالرجوع إلى الأئمة الأكابر والعلماء الراسخين وفي ضوء كلامهم وبيانهم يكون ذلك الأمر ، قال الله

تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٨٣] .

قال رحمه الله تعالى :

[فصل : فكانت أول غزاة غزاها رسول الله ﷺ غزوة الأبواء ، وكانت في صفر من سنة اثنتين من الهجرة؛ خرج بنفسه ﷺ حتى بلغ ودّان ، فوادع بني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة مع سيدهم مجدي بن عمرو ، ثم كرّ راجعاً إلى المدينة ولم يلق حرباً وكان استخلف عليها سعد بن عبادَةَ ﷺ] .

عقد رحمه الله تعالى هذا الفصل وذكر فيه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد مُهاجره إلى المدينة واستقره فيها صلوات الله وسلامه عليه ، وهذه الغزوة تسمى « غزوة الأبواء » وتسمى أيضاً « غزوة ودّان » ، والأبواء وودّان مكانان متقاربان ليس بينهما مسافة ، ولهذا يقال لها غزوة الأبواء ويقال لها غزوة ودّان ، وهي ((أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ وكانت في صفر من سنة اثنتين من الهجرة)) .

قال : ((خرج بنفسه)) أي أن النبي عليه الصلاة والسلام خرج في هذه الغزوة بنفسه . والمغازي الآتي ذكرها في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام - وبعض أهل العلم أفردوا فيها مصنفات خاصة - منها ما قد شارك فيه ﷺ بنفسه ، ومنها ما لم يشارك فيه بنفسه ، ولهذا بعض أهل العلم يفرّق بين ما شارك فيه النبي عليه الصلاة والسلام بنفسه فيسمونه غزوة ، وبين ما لم يشارك فيه وإنما أرسل جماعة من الصحابة وأمر عليهم أميراً فيسمونه بعثاً ، وإذا كان هذا البعث خرج ليلاً خفية يسمى سرية. فالنبي عليه الصلاة والسلام شارك في غزوات

كثيرة أولها « غزو الأبواء » ، وبعث بعوثاً وأرسل سرايا كبعث حمزة وبعث عبيدة ابن الحارث.

قال : ((خرج بنفسه ﷺ حتى بلغ وذان فوادع بني ضمرة ابن عبد مناة بن كنانة مع سيدهم مجدي بن عمرو الضمري)) ؛ أي أن هذه الغزوة لم يحصل فيها قتال وإنما حصل موادة بينه ﷺ وبين بني ضمرة مع سيدهم مجدي بن عمرو الضمري ، وفي بعض المصادر يقال مخشي بن عمرو الضمري .

قال : ((ثم كرّ راجعاً إلى المدينة ولم يلق حرباً وكان استخلف عليها سعد ابن عبادَةَ ﷺ)) يعني استخلف على أهل المدينة لما خرج منها صلوات الله وسلامه عليه سعد ابن عبادَةَ .

قال رحمه الله :

[(بعث حمزة ﷺ) : ثم بعث عمه حمزة ﷺ في ثلاثين راكباً من المهاجرين ليس فيهم أنصاري إلى سيف البحر ، إلى أبي جهل بن هشام وركب معه زهاء ثلاثمائة فحال بينهم مجدي بن عمرو المتقدم لأنه كان موادعاً للفريقين] .

ثم ذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام ((بعث عمه حمزة بن عبد المطلب ﷺ في ثلاثين راكباً من المهاجرين)) ؛ وهذا يسمى بعث .
((ليس فيهم أنصاري)) ؛ وإنما كان هذا البعث كلهم من المهاجرين .

((إلى سيف البحر)) ؛ سيف البحر : حافته ، وهو الطريق الذي تمر منه القوافل قادمة من الشام أو ذاهبة إلى الشام . فكان هناك عير لقريش معهم أبو جهل بن هشام قادمين بتجارة لهم من الشام متجهين إلى مكة ، فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام هذا البعث من المهاجرين وعلى رأسهم عمه حمزة ﷺ مستهدفين هذه القافلة من قريش للتعرض لها .

وهذا فيه تنبيه لقريش ولفت نظر لهم لموقفهم المتعنت والمعادي لدعوة الإسلام وتربصهم بها وبالمسلمين الدوائر وكيدهم العظيم الكُبار لهذه الدعوة ، وقد كانوا أخرجوا المسلمين من مكة وتعرضوا لهم بأنواع الأذى وصنوف الأذى وأخرجوهم من ديارهم وأموالهم لا شيء إلا لأنهم يقولون ربنا الله ، فهذا التعرض لهذا العير وكذلك الآتي بعده في بعث عبيدة بن الحارث أيضاً

لنفس الهدف كله لإنذار قريش بأنها أصبحت على خطر من هذه المواقف المسيئة والمواقف المعادية والمواقف الظالمة الباغية على المسلمين وتعرضهم لهم المسبق بأنواع من الأذى .

قال : ((إلى أبي جهل بن هشام)) ؛ أي لملاقاة أبي جهل ابن هشام .

((وركب معه زهاء ثلاثمائة)) ؛ القافلة التي كانت معه عددهم يقارب الثلاثمائة رجل ، فأرسل لهم النبي عليه الصلاة والسلام ثلاثين رجلاً ، يعني كل واحد منهم يقابل عشرة من هؤلاء ، فالتقى هذا البعث وعلى رأسهم حمزة ابن عبد المطلب بهذه القافلة معهم أبو جهل ابن هشام العدو اللدود للرسول ﷺ ، وهو الشخص الذي كان أشد ضراوة وعناداً وصداء عن دعوة النبي الكريم ﷺ وأشد الناس إيذاء للمسلمين في مكة ، فتقابل الطرفان واصطفوا متهيئين للقتال .

((فحال بينهم مجدي بن عمرو المتقدم)) ؛ مشى بينهم مجدي بن عمرو الضمري .

((لأنه كان موادعاً للفريقين)) ؛ كان موادعاً للمسلمين - والموادعة التي كانت بينه وبين النبي ﷺ تمت قريباً من هذا الحدث - وكان أيضاً بينه وبين المشركين موادعة ، فاستغل هذه الموادعة وأخذ يمشي بين الطرفين يُصلح ويهدئ الأمور ، يمشي إلى هؤلاء ويطلب منهم الكف عن القتال ، ويمشي أيضاً إلى الآخرين ويطلب منهم الكف عن القتال حتى انصرف القوم وانصرف حمزة دون أن يكون هناك قتال ، لكن هذه بحمد ذاتها فيها تنبيه لكفار قريش أنهم أصبحوا الآن على بوابة الخطر بعد المعاداة الطويلة والأذى الشديد الذي كانوا يتعرضون به للمسلمين في مهد الدعوة ونشأتها في مكة .

قال رحمه الله تعالى :

[(بعث عبيدة بن الحارث ﷺ) : وبعث عبيدة بن الحارث بن المطلب في ربيع الآخر في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين أيضاً إلى ماءٍ بالحجاز بأسفل ثنية المرة ، فلقوا جمعاً عظيماً من قريش عليهم عكرمة بن أبي جهل ، وقيل : بل كان عليهم مكرز بن حفص ، فلم يكن بينهم قتال ، إلا أن سعد بن أبي وقاص ﷺ رشق المشركين يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رُمي به في سبيل الله ، وفرَّ يومئذ من الكفار إلى المسلمين المقداد بن عمرو الكندي ، وعتبة بن غزوان رضي الله عنهما . فكان هذان البعثان أول راية عقدها

رسول الله ﷺ ، ولكن اختلف في أيهما كان أول ، وقيل إنهما كانا في السنة الأولى من الهجرة . وهو قول ابن جرير الطبري ، والله تعالى أعلم] .

ثم ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى هذا البعث الثاني من بعوث النبي عليه الصلاة والسلام وهو : ((بعث عبيدة ابن الحارث ابن المطلب ﷺ في ربيع الآخر في ستين أو ثمانين راكباً من المهاجرين أيضاً إلى ماءٍ بالحجاز بأسفل ثنية المرة ، فلقوا جمعاً عظيماً من قريش عليهم عكرمة بن أبي جهل وقيل : بل كان عليهم مكرز ابن حفص)) ؛ وكان الغرض من إرسال هذا البعث نفس الغرض من إرسال البعث الأول الذي أرسل له بعث حمزة ابن عبد المطلب ؛ وهو إنذار كفار قريش في هذه العداوة والظلم والعدوان والكيد الكُبار للإسلام والمسلمين وتربص الدوائر بأمة الإسلام .

قال : ((فلم يكن بينهم قتال)) ؛ يعني حصل بدايات القتال لكن لم يتم قتال .
((إلا أن سعد بن أبي وقاص ﷺ رُشق المشركين يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رُمي به في سبيل الله)) حصل بينهم تراشق بالسهم وكان أول سهم رُشق به المشركون يومئذ سهم من سعد ابن أبي وقاص ﷺ ، ولهذا كان هو أول سهم رُمي به في سبيل الله .

قال : ((وفرَّ يومئذ من الكفار إلى المسلمين المقداد بن عمرو الكندي وعتبة بن غزوان رضي الله عنهما)) ؛ بعض المسلمين ما كانوا مُتمكنين من الهجرة بسبب ضراوة وشدة عدوان الكفار وبعضهم كان يخفي إسلامه ، فهذان وجداها فرصة في هذا الموضع وفي هذا المكان ففرَّا إلى جهة المسلمين لينجوا بدينهما ويلتحقا بإخوانهم المسلمين رضي الله عنهم وأرضاهم .

قال الحافظ ابن كثير : ((فكان هذان البعثان)) أي : بعث حمزة ﷺ وبعث عبيدة ابن الحارث ﷺ ((أول راية عقدها رسول الله ﷺ)) ؛ المقصود أول راية للقتال في سبيل الله تعالى .

((ولكن اختلف في أيهما كان أول)) ؛ هل الأول بعث حمزة ؟ أو الأول بعث عبيدة ؟
((وقيل إنهما كانا في السنة الأولى من الهجرة وهو قول ابن جرير الطبري)) وهذا ذكره ابن جرير في كتابه تاريخ الأمم والملوك .

قال رحمه الله تعالى :

[فصل (غزوة بواط) : ثم غزا رسول الله ﷺ غزوة بواط ، فخرج بنفسه ﷺ في ربيع الآخر من السنة الثانية ، واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون فسار حتى بلغ بواط من ناحية رضوى ، ثم رجع ولم يلق حرباً] .

قال رحمه الله : ((فصل : ثم غزا رسول الله ﷺ غزوة بواط)) ؛ بواط بضم الباء بواط ، وأيضاً بفتح الباء يقال بواط : وهو جبل من ناحية جبل رضوى قريباً من جهة ينبع في ذلك المكان . وكان أيضاً الغرض من هذه الغزوة التعرض لغير لقريش قادم من الشام ، وكان فيهم أمية ابن خلف الجُمحي ، وأمّية هذا من الأعداء الألداء لرسول الله ﷺ ومن الخصوم المعاندين لدعوة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وحصل منهم أذى كبيراً للمسلمين في مكة ، وكان مع أمية في غيره هذا مئة رجل وكان معهم أيضاً ألفان وخمسمائة بعير قادمين في تجارة من الشام . ولعلنا نذكر أن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر أن تارك الصلاة ومن لم يحافظ عليها يحشر يوم القيامة مع صناديد الكفر وأعمدة الباطل وعدّ منهم أربعة منهم أمية ابن خلف هذا ، جاء في المسند للإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : ((مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُورٍ وَفِرْعَوْنٍ وَهَامَانَ وَأُيُوبَ بْنِ خَلْفٍ)) .

قال ابن كثير رحمه الله : ((فخرج بنفسه في ربيع الآخر من السنة الثانية للهجرة)) وخرج عليه الصلاة والسلام ومعه مئتان من أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم .

((واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون فسار حتى بلغ بواط من ناحية رضوى)) ؛ رضوى وبواط كلاهما جبلان قريبان من جهة ينبع ، ورضوى جبل كبير يشرف على ساحل البحر في جهة ينبع .

قال : ((ثم رجع ولم يلق حرباً)) أي : لم يكن هناك في هذه الغزوة حرب لكنها أيضاً تبقى مؤشرات خطر وإنذار لكفار قريش في موقفهم المعادي وتصرفاتهم المتعنتة ضد دعوة الإسلام وضد المسلمين .

قال رحمه الله تعالى :

[ثم كانت بعدها غزوة العُشيرة ، ويقال بالسين المهملة ، ويقال العُشيرة . خرج بنفسه ﷺ في أثناء جمادى الأولى حتى بلغها ، وهي مكان ببطن ينبع وأقام هناك بقية الشهر وليالي من جمادى الآخرة ، وصالح بني مدلج ثم رجع ولم يلق كيداً ، وقد كان استخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد . وفي صحيح مسلم من حديث أبي إسحاق السبيعي قال : قلت لزيد بن أرقم رضي الله عنه : كم غزا رسول الله ﷺ ؟ قال : (تسع عشرة غزوة ، أولها العُسير أو العُشير)]

ثم قال رحمه الله : ((ثم كانت بعدها غزوة العُشيرة ، ويقال بالسين المهملة العُشيرة ، ويقال لها العُشيرة)) وفي هذه الغزوة ((خرج ﷺ بنفسه في أثناء جمادى الأولى حتى بلغها)) ؛ وبواط كانت قبلها في ربيع الآخر أي أنها في الشهر الذي يلي غزوة بواط . ((وهي مكان ببطن ينبع ، فأقام هناك بقية الشهر - أي شهر جمادى الأولى - وليالي من جمادى الآخرة))

((وصالح بني مدلج ثم رجع ولم يلق كيداً)) ؛ يعني لم يحصل في هذه الغزوة قتال . ((وقد كان استخلف على المدينة أبا سلمة ابن عبد الأسد)) ؛ وجميع هذه الغزوات التي كانت بداية الأمر كلها مؤشرات لظهور هذه الدولة وبروز هذه القوة ووضوح هذا التمكن لأمة الإسلام التي بدأت تنطلق من بلد رسول الله ﷺ .

قال : ((وفي صحيح مسلم من حديث أبي إسحاق السبيعي قال : قلت لزيد بن أرقم رضي الله عنه : كم غزا رسول الله ﷺ ؟ قال : تسع عشرة غزوة أولها العُسير أو العُشير)) ؛ هذه المنطقة تُنطق بالسين المهملة أو بالشين المعجمة : العُسير أو العُشير وأيضاً العُشيرة . والحافظ ابن حجر رحمه الله أورد الحديث في موضع من كتابه فتح الباري وقال : " لعل زيد

ابن أرقم لم يذكر ما قبلها وهي بواط والأبواء لصغر سنه " ؛ لم يقف على هاتين الغزوتين وهما غزوتان سابقتان لهذه الغزوة غزوة العشيرة .

قال رحمه الله تعالى :

[(غزوة بدر الأولى) : ثم خرج بعدها بنحو من عشرة أيام إلى بدر الأولى ، وذلك أن كرز بن جابر الفهري أغار على سرح المدينة فطلبه فبلغ وادياً يقال له سفوان في ناحية بدر ففاته كرز فرجع ، وقد كان استخلف على المدينة زيد بن حارثة رضي الله عنه] .

ثم ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى هذه الغزوة ((غزوة بدر الأولى)) لأن الغزو إلى جهة بدر ثلاث ، كلها ستأتي عند الإمام ابن كثير ، وهذه غزوة بدر الأولى ، وتأتي قريباً غزوة بدر الكبرى وهي أول الغزوات الكبرى التي هي من أمهات غزوات النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وستأتي أيضاً غزوة ثالثة تتعلق ببدر .

قال : ((ثم خرج بعدها بنحو من عشرة أيام إلى بدر الأولى)) ؛ ولهذا الخروج - خروج النبي عليه الصلاة والسلام - إلى جهة بدر سبب .

((وذلك أن كرز ابن جابر الفهري - وكان رأساً من رؤوس المشركين - أغار على سرح المدينة)) ؛ أي أغار على مواشي للمسلمين من إبل وغنم وانتهب منها وذهب إلى جهة بدر .

((فطلبه)) ؛ يعني لحقه النبي عليه الصلاة والسلام ، وخرج في هذه الغزوة التي تسمى غزوة بدر الأولى .

((فبلغ وادياً يقال له سفوان في ناحية بدر ، ففاته كرز)) يعني لم يدركه النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه

((فرجع - أي النبي ﷺ - وكان قد استخلف على المدينة زيد بن حارثة)) .

كرز الذي كان رأساً من رؤوس المشركين وجاء وانتهب من سرح المدينة مواشي للمسلمين وذهب فاراً بها ولحقه النبي ﷺ ولم يدركه ؛ كتب الله ﷻ له الإسلام - رضي الله عنه وأرضاه - .

ومن الموافقات العجيبة : قصة العُرنين الذين جاؤوا إلى المدينة وقد أصابهم المرض والإعياء والهزال فأذن لهم النبي ﷺ أن يقيموا عند إبل الصدقة يشربوا من ألبانها وأبوالها فجلسوا عند إبل الصدقة بتلك الأجسام المريضة الهزيلة الضعيفة وأخذوا يشربون من الألبان والأبوال حتى استصحّت أجسامهم وقويت أبدانهم ؛ وبعد هذا الإحسان العظيم من النبي ﷺ قتلوا الراعي وساقوا الإبل فارين بها ، فلما بلغ النبي ﷺ هذا الأمر أرسل في إثرهم من أصحابه من يدركوهم ويأتون بهم وأمر عليهم كرز ابن جابر الفهري ؓ فأدركوهم وأسروهم وردّ ﷺ الإبل التي أخذها هؤلاء ورجع بهم إلى النبي ﷺ يقودهم ويسوق الإبل . وقام النبي عليه الصلاة والسلام بالتنكيل بهم بسمر أعينهم وإلقاءهم في الحرة حتى ماتوا عقوبةً لهم على هذا العدوان والبغي العظيم الذي قاموا به ضد المسلمين وقتلهم لأحد أفراد المسلمين وفرارهم بإبل الصدقة ولم يقدّروا الإحسان العظيم الذي أكرمهم به ﷺ .

سبحان الله !! قبل هذه القصة بسنّيات قليلة قام بالأمر نفسه ؛ اقتاد هو من إبل المسلمين وماشيتهم وفرّ بها وطلبها النبي ﷺ والصحابة ولم يدركوه ، ثم يكتب الله ﷻ له الإسلام فيُسلم ويحسن إسلامه !! ثم تحصل هذه القصة وأيضاً تتعلق بإبل المسلمين والفرار بها ويُرسَل هو أميراً على البعث الذي بعثه النبي ﷺ في إثر هؤلاء الذين فرّوا بإبل الصدقة !! مع أنه جرت العادة في مثل هذه الأحداث يكون عليه سابقة ويُتجنّب تماماً وكلما أريد أن يولّى أمراً يذكرّون لا تنسوا أنه حصل منه كذا في تاريخ كذا ؛ فهاهو عليه الصلاة والسلام يوليه في الأمر الذي تاب من نظيره ، ممّا يدل على رحمة الإسلام ، وفضل الإسلام ، وكمال الإسلام ، والعفو والصفح العظيم الذي في الإسلام ، وأنّ الإسلام بالتوبة يهدم ما قبله ، ويُعتبر الأمر الذي تاب منه الإنسان ملغى ومنتهى تماماً وعُفي عنه ولا يبقى يُلتفت إليه ويُنظر إليه وكلما جاء أمر أو حدث حادث جُدّد العهد بشيء تاب منه الإنسان توبة نصوحاً بينه وبين الله .

قال رحمه الله تعالى :

[(بعث سعد بن أبي وقاص) : وبعث سعد بن أبي وقاص ؓ في طلب كرز بن جابر فيما قيل والله أعلم . وقيل : بل بعثه لغير ذلك] .

ثم ذكر ابن كثير رحمه الله تعالى هذا البعث الذي بعثه النبي عليه الصلاة والسلام ((بعث سعد بن أبي وقاص)) ونلاحظ أنَّ البعث يُنسب إلى القائد الذي يجعله النبي ﷺ أميراً عليه ؛ فيقال: بعث حمزة ، بعث عبيدة ، بعث سعد .

قال : ((وبعث سعد بن أبي وقاص في طلب كرز بن جابر فيما قيل)) ؛ لأنه اختلف في بعث سعد هل كان لإدراك وطلب كرز ابن جابر ؟ فهذا قول . وقيل غير ذلك كما أشار ابن كثير ((وقيل بل بعثه لغير ذلك)) ؛ قال ابن إسحاق في السيرة : " بعثه أي سعد بن أبي وقاص في ثمانية رهط من المهاجرين فخرج حتى بلغ الخَزَّار من أرض الحجاز بالقرب من الجحفة " ولهذا أيضاً تسمى هذه السرية سرية الخرار في بعض المصادر ؛ فهل كانت لطلب كرز ابن جابر الذي انطلق النبي ﷺ في إثره إلى بدر الموعد ولم يدركه وفات النبي عليه الصلاة والسلام ، أو لأمر آخر ؟ الله تعالى أعلم بذلك .

قال رحمه الله تعالى :

[فصل (بعث عبد الله بن جحش) : ثم بعث رسول الله ﷺ عبد الله جحش بن رثاب الأسدي وثمانية من المهاجرين وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، ولا يُكره أحداً من أصحابه ففعل ، ولما فتح الكتاب وجد فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم ، فقال: سمعاً وطاعة ، وأخبر أصحابه بذلك وبأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض ، ومن كره الموت فليرجع ، وأما أنا فناهض ، فمضوا كلهم . فلما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيداً لهما كانا يعتقبانه فتخلفا في طلبه ، ونفذ عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة ، فمرت به غير لقريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة ، فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة ، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة ، فتشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام ؛ فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم ، ثم اتفقوا على ملاقاتهم ، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله ، وأسروا عثمان والحكم ، وأفلت نوفل . ثم قدموا بالعين والأسيرين قد عزلوا من ذلك الخمس ، فكانت

أول غنيمة في الإسلام وأول خمس في الإسلام ، وأول قتيل في الإسلام ، وأول أسير في الإسلام، إلا أن رسول الله ﷺ أنكر عليهم ما فعلوه ، وقد كانوا ﷺ مجتهدين فيما صنعوا . واشتد تعنت قريش وإنكارهم ذلك وقالوا : محمد قد أحلَّ الشهر الحرام ، فأنزل الله ﷻ في ذلك { يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ } يقول سبحانه : هذا الذي وقع وإن كان خطأ - لأن القتال في الشهر الحرام كبير عند الله - إلا أن ما أنتم عليه أيها المشركون من الصد عن سبيل الله والكفر به وبالمسجد الحرام وإخراج محمد وأصحابه الذين هم أهل المسجد الحرام في الحقيقة أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام . ثم إن رسول الله ﷺ قبل الخمس من تلك الغنيمة ، وأخذ الفداء من دينك الأسيرين [.

ثم عقد ابن كثير رحمه الله تعالى هذا الفصل في ذكر هذا البعث ((بعث عبد الله ابن جحش ﷺ)) وسياق هذا البعث جاء في المعجم الكبير للطبراني بإسناد حسن ، وفي مسند أبي يعلى .

بعث عبد الله ابن جحش أرسله النبي عليه الصلاة والسلام إلى نخلة جنوب مكة ، وهذا يعتبر أيضاً خطوة - إن صحت العبارة - جريئة في التقدم إلى أقرب مركز أو مكان من جهة العدو في مكة ، وهذا أيضاً مما ينذر هؤلاء بالخطر العظيم ، فالبعث الأولى كانت إلى ساحل البحر تتعرض للتجارة القادمة من الشام ، لكن هذا البعث يتقدم إلى جنوب مكة يتعرض ويستطلع للقادمين من جهة اليمن !! فهذا أيضاً مما ينذر كفار قريش بالخطر العظيم من هذه الدولة المسلمة التي وقف منها هؤلاء الكفار موقف التعنت والمعاداة والعدوان الشديد .

قال : ((ثم بعث رسول الله ﷺ عبد الله جحش بن رثاب الأسدي ﷺ وثمانية من المهاجرين)) ؛ ونلاحظ أيضاً تقدُّم هؤلاء إلى منطقة قريبة من مكة وهم قلة !! فهذا فيه مخاطرة وأمر عظيم جداً ، والإقدام على هذا الأمر يحتاج إلى همة عالية وصدق مع الله ﷻ وصبر ومصابرة وبذل .

فكان من النبي عليه الصلاة والسلام أن كتب كتاباً وأعطاه عبد الله ابن جحش الذي جعله أميراً على هذا البعث ((وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه)) ؛ قال : هذا الكتاب لا تفتحه ، يبقى على إغلاقه حتى تمضي يومين من المدينة ثم تفتح الكتاب . قال : ((ولا يُكره أحداً من أصحابه)) ؛ يعني بعد أن تفتح الخطاب وتطلع ما فيه لا تُكره أحداً ممن معك على القيام بالمطلوب .

((ففعل ، ولما فتح الكتاب وجد فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف)) ، هذا تحديد المكان والوجهة التي طلب منه النبي ﷺ الاتجاه إليها . والهدف : قال ((فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم)) ؛ فأرسله النبي عليه الصلاة والسلام في هذا البعث للاستطلاع ورصد أخبار قريش عن كذب وعن قرب من مكائهم ، وهذا أول بعث يوغل ويتقدم إلى منطقة قريبة جداً من مكان الأعداء .

فلما قرأ كتاب النبي عليه الصلاة والسلام ((قال : سمعاً وطاعة)) ؛ بالنسبة له هو تلقى خطاب النبي عليه الصلاة والسلام مباشرة بالسمع والطاعة ﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾

[البقرة: ٢٨٥] .

((وأخبر أصحابه بذلك)) ؛ أي قرأ وأطلعهم على طلب النبي عليه الصلاة والسلام . ((وبأنه لا يستكرههم)) أي لا يحملهم على هذا ويلجئهم إليه كرهاً ، وإنما هم بالخيار في ذلك .

قال : ((فمن أحب الشهادة فلينهض)) ؛ من أحب الشهادة في سبيل الله فلينهض . ((ومن كره الموت فليرجع)) ؛ وهذا فيه إشارة إلى أن الأمر فيه مخاطرة وفيه تعرض للقتل لأنه قرب شديد من مكان العدو .

فعرض عليهم وقال لهم : ((وأما أنا فناهض)) أي : قائم بهذا الأمر . ((فنهضوا كلهم)) ؛ في بعض النسخ ((فمضوا كلهم)) ؛ يعني قاموا بهذا الأمر لم يتراجع منهم أحد ، وهذا يدل على صدق هؤلاء وقوة إيمانهم وشدة طواعيتهم وامتنانهم لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

قال : ((فلما كان في أثناء الطريق أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما كانا يعتقبانه)) يعني سعد وعتبة لم يكن معهما إلا بغير واحد يعتقبانه ، كل واحد يكون له نوبة في ركوب البعير ويمشي الآخر إلى أن يتعب وهكذا .
فأضلا بغيراً لهما ((فتخلفا في طلبه)) ؛ وهذا التخلف لم يؤخر الأمير والقائد عبد الله ابن جحش .

((فمضى حتى نزل بنخلة)) ؛ نفذ حتى نزل بالمكان الذي حدد له النبي ﷺ أن يذهب إليه .

قال : ((فمرت به عير لقريش تحمل زيباً وأدماً وتجارة)) ؛ عير قادمة بتجارة من جهة اليمن .

((فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة ، والحكم بن كيسان مولى بني المغيرة ، فتشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام)) ؛ الآن الأمر يحتاج إلى اتخاذ قرار سريع ، هم في آخر يوم من رجب ، ورجب من الأشهر الحرم ، والأشهر الحرم كما هو معلوم أربعة ﴿ إِنِ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة: ٣٦] وهي : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، هذه الثلاثة - ذو القعدة وذو الحجة ومحرم - سرد متصلة ، ورجب فرد يعني ليس معه شهر آخر متصل به من الشهور الحرم . فكانوا في آخر يوم منه ، من الغد لا يكونون في شهر حرام ، لكن هذا العير ماضي لا ينتظرهم ، فإما أن يمضي هذا العير ولا يكون منهم شيء وتعرض له ، أو أنهم يقاتلونه في آخر يوم من الشهر الحرام .

قال : ((فتشاور المسلمون وقالوا : نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام ، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام ، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم)) ؛ يعني فاتنا الأمر .

((ثم اتفقوا على ملاقاتهم ، فحصل تلاق)) ؛ لاقاهم المسلمون في هذا الوقت في آخر يوم من شهر رجب ، ((فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله)) ؛ وهذا أول قتيل .

((وأسروا عثمان والحكم)) ؛ وهما أول أسير .

((وأفلت نوفل)) .

((ثم قدموا بالغير والأسيرين قد عزلوا من ذلك الخمس ، فكانت أول غنيمة في الإسلام ، وأول خمس في الإسلام ، وأول قتل في الإسلام ، وأول أسير في الإسلام)) ؛ هذه أربعة معدودة في الأوائل ، ومر معنا قبلها أيضاً أول سهم في الإسلام رماه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه . وبعض أهل العلم يهتم بهذا الأمر وبعضهم أفردته بالتصنيف ، ومنهم الإمام ابن أبي عاصم له كتاب مطبوع اسمه "الأوائل" كله خاص بهذا ، يقول أول كذا هو كذا .

قال : ((إلا أن رسول الله ﷺ أنكر عليهم ما فعلوه)) ؛ أنكر عليهم هذا الإقدام والانتهاك لحرمه الشهر ، وكفار قريش متقرر عندهم ومعلوم لديهم حرمة الشهر وكانوا لا يقاتلون في الشهر الحرام لإدراكهم لحرمته . وفي صحيح البخاري قصة وفد عبد القيس لما قدموا للنبي عليه الصلاة والسلام قالوا : ((يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَأْتِيكَ إِلَّا فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ كُفَّارٍ مُضَرٍّ قُمَرْنَا بِأَمْرِ فَضْلِ تُخَبِّرُ بِهِ مَنْ وَرَاءَنَا وَنَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ)) ؛ لأنهم في الشهر الحرام يضمنون أن كفار مضر لا يتعرضون لهم .

قال : ((وقد كانوا ﷺ مجتهدين فيما صنعوا)) ؛ الصحابة رضي الله عنهم كانوا مجتهدين ، والمجتهد - كما هو معلوم - إما أن يكون مجتهداً مصيباً فله أجران ، وإما أن يكون مجتهداً مخطئاً فله أجر واحد وذنبه مغفور كما هو واضح في حديث النبي ﷺ : ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد)) .

لكن ماذا ترتب على هذا ؟

((واشتد تعنت قريش وإنكارهم ذلك وقالوا : محمد قد أحلَّ الشهر الحرام)) ؛ أخذوا يتحدثون ويلوكون هذا الأمر وينشرونه في الآفاق ويروجون هنا وهناك " محمد انتهك الشهر الحرام " ، مع أنَّ النبي ﷺ لم يحصل منه شيء من ذلك ؛ لم يُحلَّ الشهر الحرام ، وإنما الواقع أن هذا اجتهد من هذا البعث الذين بعثهم النبي صلوات الله وسلامه عليه .

((فأنزل الله ﻋَﻠَﻴْﻚ في ذلك : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ﴾)) ؛ لأنهم يستنكرون .

((﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾)) ؛ لأنه شهر حرام . وهذا فيه بيان أن هذا الأمر خطأ .

قال : ((﴿ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرُ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾)) ؛
يعني إذا كنتم تخطّون هذا الأمر وتجرّمونه وتعدّونه خطأ أنتم على أخطاء أفضع وجرائم أكبر
وأعظم عدّها الله ﷻ في هذه الآية : { وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } ، { وَكُفْرُ بِهِ } ، { وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ } ، { وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ } أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ من القتال في الشهر الحرام .

يوضح ابن كثير رحمه الله معنى الآية فيقول : ((يقول سبحانه : هذا الذي وقع وإن كان
خطأ - لأن القتال في الشهر الحرام كبير عند الله - إلا أن ما أنتم عليه أيها المشركون
من الصد عن سبيل الله والكفر به وبالمسجد الحرام وإخراج محمد وأصحابه الذين هم
أهل المسجد الحرام في الحقيقة أكبر عند الله من القتال في الشهر الحرام)) .

((ثم إن رسول الله ﷺ قبل الخمس من تلك الغنيمة ، وأخذ الفداء من ذينك الأسيرين))
؛ النبي عليه الصلاة والسلام كان متوقفاً في أمر الغنيمة فلما نزلت هذه الآية قبل الخمس من
تلك الغنيمة ، وأخذ الفداء من ذينك الأسيرين .